السّلطة والآخر في طومبيزا لرشيد ميموني

بن جماعي أمينة[1]

النّصّ السّردي، بقدر ما يتحدّث يتحدّث عن الإنسان، فهو يتحدّث إليه أيضا، في خطابات الاستفهام الّتي تُلحّ على الوصول إلى منطقة الإجابات، حيث يسكن نبض الحياة، الّذي يحكي ظلّ الرّاهن في "تجربة عميقة تتوافق فيها عمليّتي التّنقيب والاستنتاج"، فيتحوّل فيها الكنه الإنساني وما يستفزّه من طوارئ خارجية إلى مركز للاطّلاع على حقيقة الحياة، وما تُسرّه من غوامض وتصادميّات متعدِّدة المنابع، ممّا يجعل النّصّ السّردي شبيها برحلة قد تطول وقد تقصر، ولكن "العودة منها يُفترض أن تكون هادئة"، بعد أن يكون مبتغى تقريب الحيّز الخيالي من الحيّز الواقعي قد تحقّق، وأضحى التّفريق بينهما أمرا عسيرا.

من هذه النّقطة ينطلق الفنّ السّردي ليُعرّي ممارسات من "السّلوك والأحاسيس والأمزجة المشتركة بين البشر والمستمرّة من جيل إلى آخر"، صانعة في تطوّريّة تصاعدية، ملامح السّلطة بكبريائها العنيف وجاهها النّهم.

هذه السّلطة الّتي ستختزلها سرديّة طومبيزا في شخصيّة أعلنت عصيانها على الرّاهن برفضها للآخر، الّذي باتت علاقتها به مختلّة حتّى التّخريب، وعدائيّة حدّ الانتقام. انتقام شرعته ضدّه متى أُتيحت لها السّانحة ووافقتها اللّحظة. فتكون الإساءة الّتي تتعدّد وتتنوّع، والقهر الآسر الكاسر.

وبقدر ما يكون شرّها عنيفا مهلكا لهذا الآخر، يكون رضاها على نفسها وابتهاجها بما حقّقت، وهي لا تُظهر بإزاء ما تقترفه أدنى إحساس "بالنّدم أو اللّوم أو تأنيب الضّمير". هذا اللّون من السّلطة يتكشّف وطومبيزا تتبع تحرّكات محافظ الشّرطة.

[1] أستاذ(ة) تلمسان

باتول الّذي لا يُعلم إلاّ بهذا الاسم في السّرديّة كلّها، واليقين في ذلك أنّه لقب استحدثه له الآخر وألصقه به حينما أمعن في ظلمه وتحقيره والكيد له باسم القبّعة السّلطويّة، ليحمله على الاعتراف به والإذعان له، في هدوء مذلّ، ودونما صخب أو تذمّر.

وهكذا استوعب (باتول) معنى السّلطة واستكنه مدلولاتها ليمنح نفسه الحقّ بعد ذلك فيجعل الآخر حيّزا استفراغيّا لكلّ ما يعتمل في دخيلته من تناقضات عاطفيّة ولا منطقيّات فكريّة "يُهينهم يُعنّفهم يلطمهم يُدحرجهم يُوبّخهم دون سبب، بل لمجرّد أنّهم وجدوا أنفسهم أمامه وجها لوجه، فلابدّ أن يفرض عليهم سلطته كمحافظ شرطة في هذه المدينة، ويُعبّر عن كراهيته لهؤلاء النّاس الّذين ليس بوسعهم إلاّ أن يُطأطئوا رؤوسهم أمامه، يُشبعهم ركلا، ينهال عليهم بوابل الشّتائم البذيئة، حين يمرّ يلتصقون بالجدران أو يرجعون القهقرى حتّى لا يُلاقوه".

باتول السّلطة يُشبه فيما يرتكبه، ذاك الوحش الّذي تُظهره الأسطورة وهو يتسلّط على المكان وأهله، فلا يبرحه إلاّ وقد أجهز على الأخضر واليابس فيه.

ممّا يشي بنفسيّة مفخّخة تخاف من انفجار ألغامها فيها، فتُحوّلها باتّجاه الآخر، تؤدّبه كما القاصر، تُعاقبه إلى درجة التّعذيب، دونما خطأ يُعلَمُ فيُذكر، يكفي أن يتواجد هذا الآخر في مساحتها ليُصبح مجرما وجبت إدانته.

يبدو أنّ باتول السّلطة يستمدّ قوّته من ذاك الآخر، المتوجّس منه خيفة، العاجز عن رفع رأسه والنّظر إليه ومواجهته، اللاّذ بالفرار للالتصاق بأقرب جدار كالحشرة، ذاك الآخر الذي يتحوّل نجسا قذرا وباتول السّلطة يُمطره بسيل من عبارات الفحش ومعاني الصّفاقة، فينجح ذاك الآخر وحده في أن يجعل باتول السّلطة مطمئنّا بالعيش في أوج نشوته السّلطويّة الّتي تُمِلّكه الزّمان والمكان، وتُملي عليه ضرب الحميميّات مادامت للآخر، فيقتحمه مباغتا لأجل أن "يتلذّذ هذا الصّمت الّذي خيّم فجأة على القاعة الّتي كانت غاصّة، ضجيجها يفوق ضجيج مدجنة، الجميع يُدركون من هم يُواجهون، فتنحني الرّؤوس، حينئذ ينتفخ صدره مزهوّا بهذا الخضوع".

ها هو باتول السّلطة ما أن يظهر ويتخطّى عتبة المكان حتّى يعمّ الصّمت، وتنقطع جلبة السّكارى، ويختفي ضجيج الندماء، وتستحيل الحانة المصطخبة بالآخر الهارب من نفسه إلى نفسه، إلى حبس يُعنّف فيه بصره وتُنكس فيه هامته، وهو يشعر بأنّه متّهم بذنب ما، وباتول السّلطة هنا

للبحث عنه للقبض عليه وسحبه مثل الحمل إلى قسم الشّرطة ليبدأ معه هناك سيناته الّتي لا يُمكن لكلّ جيمات الأرض أن تُبرّئه ممّا يكون قد حيك ضدّه.

وكم يُغبط باتول السّلطة مشهد الآخر وهو يشكّ في نفسه، فيقف عند كلّ لحظة من يومه يستنطقها، علّها تُخبره بما يكون قد جناه.

قد يشتهي باتول السّلطة في بعض المرّات أن يخلع عنه زيّه العسكريّ ويستبدله بلباس مدنيّ ليتوجّه نحو الطّريق الأكثر ازدحاما، "يتسمّر وسط الشّارع لازدراء السّيّارات المارّة فإن رآه السّائقون من أبناء المدينة توقّفوا بحذر، أمّا الأجانب إن تجرّؤوا على استعمال الكلاكسون أو إظهار امتعاضهم من هذا الأحمق المتسمّر في الطّريق ببذلته المدنيّة، قيدوا بعنف إلى محافظة الشّرطة، فمن توسّلوا أكثر من غيرهم، وتظاهروا بالنّدم، أطلق سراحهم، بعد دفع غرامة ماليّة بحجّة استعمال منبّهات رنّانة في غير محلّها، ومن احتجّ دفع الثّمن غاليا، من سحب رخصة القيادة إلى حبس المتمرّد في زنزانة المحافظة".

وحتّى يتأكّد باتول السّلطة من أنّ الآخر واقع في شراكه التّخويفيّة، فإنّه يتمادى في استعمال سطوته ضدّه، فينتصب وسط الطّريق لا تنز منه حركة، ليبدأ من هناك استفزازه له، فإن كان هذا الآخر ممّن ألف نزقه فإنّه سيُجاريه ويكبح سيّرته ما أن يرمقها، وقد يتوقّف كلّيّة لا يتحرّك حتّى يأذن له، أمّا إذا كان هذا الآخر ممّن لا يعرفونه وعّن له أن يُطلق بوق سيّارته ليُبعده عن المسار، فإنّه يكون قد ورّط نفسه، وتكفي حينئذ إشارة واحدة من باتول السّلطة لأعوانه ليكون هذا الآخر في المخفر.

سعادة لا تُضاهى تلك الّتي تلفّ باتول السّلطة والآخر يتوسّل إليه ويتمسّح بأذياله ليعفو عنه، وكلّما كان التّذلّل كبيرا كان الصّفح ممكنا، ولكن بعد دفع غرامة مخالفة القانون الّذي يمنع إطلاق بوق السّيارة دونما داعٍ، وبقدر ما يكون رضاه عن الاخر الخنوع، بقدر ما يكون غضبه شنيعا من الآخر المتمرّد الّذي يُواجهه بخطئه، ويُجهر في وجهه بأنّه كان عليه أن يُعرّف بنفسه حتّى لا يقع اللّبس، فيُعدّ من المدنيّين أو المختلّين الّذين لا يُدركون ما يفعلون.

ولأنّ باتول السّلطة لم يتعودّ أن يُعلِّمه الآخر ما يجب وما لا يجب، فهو لن يكون متسامحا معه، وسيُنزل به العقوبة الّتي يراه يستحقّها، كأن يُجرِّده من رخصة السّياقة أو كأن يقذف به خلف القضبان.

يستمرّ باتول السّلطة في التّضييق على الآخر، فيُحرِّم عليه الاقتراب من الحيّ الّذي يسكنه "لأنّه عليه آنذاك إثبات هويّته وأن يشرح بالتّفصيل الدّواعي الّتي دفعته إلى المرور من هذا الشّارع بالذّات دون غيره، ثمّ لماذا لم يكن في مقرّ عمله في هذه السّاعة، وربّا اتُّهم بالتّسكّع".

يظهر باتول السّلطة، وقد سيّج منطقته، ووقف شخصيّا يحرسها بخطّة دفاهجوميّة، صنعها من كلّ المحظورات الّتي تُجرِّم الآخر إن هو دنا منها، بتوقيفه وإرغامه على استظهار كلّ أوراقه الثّبوتيّة، ثمّ باستنطاقه عن سبب كسره للقانون، وفي ذاك الوقت بالذّات، فإنّ كان صباحا، لماذا؟ أليس لديه عمل يُفترض أن يُداومه؟، وإن كان مساء، لماذا؟ ألا يملك بيتا يتوجّب عليه العودة إليه بدل التّسكّع في دروب المدينة وأحيائها؟ ويكون التّسكّع وفق هذا من أعظم الخيانات الّتي لا يغفرها باتول السّلطة، المؤمن بأنّ كلّ الجرائم إن هي إلاّ خاتمة للتّسكّع، ولذا تُصبح معاقبة الآخر منطقيّة ينسى بها حبّ التّطلّع الموصل إلى تجاوز الخطوط الحمراء.

هذه الخطوط الّتي يرفسها باتول السّلطة وهو يثّبت لنقمته على الآخر، النّاضحة مقتا، الّذي قد يتنامى ليُرادف الموت.

"قصد السّكان حنفيّة البلديّة ليُزوّدوا منها بالماء، فبلغ ذلك باتول فأمر رئيس البلديّة بغلق الحنفيّة ففعل، بالغد تجمهر عدد من السّكّان أمام الحنفيّة يريدون ماء، وهم ساخطون ناقمون مهدِّدون لرئيس البلديّة الّذي اتّصل بباتول فجاء وتصنّع استفسار الأمر".

لا شيء يتحرّك إلاّ بأمر باتول السّلطة، وكما يُريد، وعندما يُريد، بعد أن تواطأت معه جميع السّلط وكلّ الصّلاحيّات فنفّذت تعليماته. فرئيس البلديّة لم يُصبح إلاّ اليد الباطشة باسمه، الّتي تمنع الماء عن الآخر، الّذي لا يستحقّ إلاّ أن يُعاني ويشقى، وإن هو تذمّر أو شكا، فلن تطلع شّمس يومه ذاك، لأنّ باتول السّلطة ارتضى له ذاك المصير.

دأب باتول السّلطة يظل على هذا النّحو إلى أن تبدأ موجات المهاجرين العائدين إلى الوطن تتوالى، حينها يبرز تربّصه بالآخر الوافد، فيعترض طريقه بمجرّد وصوله، ويُسخّر كلّ ملكاته

لمخاتلته تضييقا وإزعاجا وتحقيرا، وعينه على الغنائم الّتي يجرّها خلفه، فلا يرفع عنه سفهه إلاّ بعد أن يُمكِّنه من "علبة كبيرة من السّجائر الأمريكيّة أو أيّ بضاعة غربيّة".

هكذا يفتكّ باتول السّلطة المحبوب إلى نفسه، سجائر راقية أمريكيّة الصّنع، بعد أن عاف السّيجارة المحلّيّة الكريهة، الّتي تُذكّره بأنّه يشترك ويتساوى مع ألآخر، أنانيّة تُحقّق له لذّته في كلّ الأحوال، فإن لم يظفر بالسّجائر الفاخرة فلا بأس أن يخطف شيئا آخر يكون موطنه البلاد الّتي خلف البحر، الّتي كثيرا ما حلم بأن يطأها، وتمنّى أن يستوطنها.

عُرْفُ باتول السّلطة لقّنه بأنّ زوجته هي أيضا الآخر، فانبرى لترويضها حتّى سلّمت واستسلمت، فراح يتحدّث عنها بكثير من فخر الانتصار. " طيعة إلى حدّ لا يخطر ببالها أبدا انتقادي أو معارضتي في رأي، فما الجدوى إذن من الحديث معها؟ كلّ ما أقوله لها تراه مقدّسا، فقد آمنت إيمانا راسخا لا يتحوّل بربّها وزوجها".

بهذا يتحوّل الآخر إلى صورة حسب المواصفات الّتي تُريح باتول السّلطة، آخر خاضع له، لا يمتلك رأيا مخالفا لرأيه، ولا يقوى على التّفكير بغير منهجه، مصادر العقل والعواطف، منقاد دونما مقاومة، آخر يسترخص آدميّته لأجله ويتحاشى بكلّ السّبل أن يدخل معه في مناقشات قد تُولّد صراعات. يراه مقدسا فيؤمن به قولا وفعلا.

الهوامش

1-Roland Barthes, Essais critiques, Editions du Seuil, 1964, p.42.

2-Tzvetan Todorov, Théorie de la littérature, Editions du Seuil, 1965, p.203.

3-Water Allen, The English novel auglettere, Pinguin, 1991, p.44.

4-رشيد ميموني، لافوميك، 1989.

5-عبد الله محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية، ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001-2002، ص.389.

6-طومبيزا، ص.10.

7-طومبيزا، ص.10.

8-طومبيزا، ص.11.

9-طومبيزا، ص.13.
10-طومبيزا، ص.17.
11-طومبيزا، ص.13.
12-طومبيزا، ص.166.
13- رشيد ميموني، طومبيزا، لافوميك، 1989.
14- عبد الله محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية، ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001-2002، ص.389.
15- Roland Barthes, Essais critiques, Editions du Seuil, 1964.
16- Tzvetan Todorov, Théorie de la littérature, Editions du Seuil, 1965.
17- Water Allen, The English novel auglettere, Pinguin, 1991.